مفهوم السيمياء عند "ش.س. بيرس"

ارتبط مفهوم السيمياء بالمنطق الذي هو علم الفكر الذي تجسده العلامات، وبالفلسفة والرياضيات عند "ش.س. بيرس"، والذي سعى فيه إلى بناء نظرية عامة للعلامات بما فيها اللغة باعتبارها تنتمي إلى الكثير من المجالات العلاماتية؛ وقد ساعده على ذلك كونه عالم فلك وعالم أرض, وكان أيضا فيلسوفا, وعالم فيزياء, ليكون تصوره لهذا العلم شاملا لكل ما من شأنه أن يكون علامة, أو أن يكوّن علامة, ويقوم هذا العلم على شيء أساسي هو نواة مركزية فيه؛ وهي العلامة Signe التي يعرفها على أنها "شيء ما ينوب لشخص ما عن شيء ما، من جهة ما, وبصفة ما, وبطريقة ما".

وينطلق في ذلك "من الفكرة القائلة أنه لا يمكن أن نحكم على وضوح فكرة ما إلا بواسطة الفعل المغاير الذي تتيحه", ومن هنا كان هنالك فرق بين الفكرة وما يوضحها باعتباره شيئا مختلفا عنها, فمفسرة العلامة هي علامة أخرى, وليست دلالتها، ويتضح ذلك من خلال تحديد العلامة باعتبارها نظاما خاصا قائما بذاته؛

يرى "بيرس" أن السيميائية هي المنطق في معناه العام من حيث التعليل لشيء بشيء آخر, لتصبح العلم الثالث المعياري إلى جانب علم الأخلاق, وعلم الجمال, وهذه الفلسفة تقوم على وصف ما هو "أمام الفكر أو في الوعي مثلما هو ظاهر في مختلف أنواع الوعي"؛ فالوعي يرتبط بأنواع ثلاثة؛ هي فكرة الواحد والاثنين والثلاثة بوصفها أيضا الصيغ الأولية الثلاث التي لها علاقة بالتحليل المنطقي؛ فواحد لصيغة الفكرة البسيطة، واثنان للصيغة العادية النسبية، وثلاثة التي تجمع أكثر من اثنين فتشكل ثالثا ليس بالإمكان اختزاله إلى اثنين كالولد بالنسبة للأب والأم.

فالعلامة إذا تقوم على علاقة ثلاثية, ولهذه العلاقة عند بيرس أصل رياضي آخر يتمثل في استحالة تكوين علاقة ثلاثية دون إدخال عنصر آخر يختلف من حيث طبيعته عن الواحد والاثنين.

ولكي يتضح الأمر فإن نظرية "دو سوسير" كانت ثنائية الأطراف؛ فكل تفسيراته كانت تفسيرات ثنائية الأصول صورة سمعية / صورة ذهنية، دال / مدلول، وتحاول دائما الربط بين هذين الطرفين.

أما العلامة عند "بيرس" فهي دائما ثلاثية، وتنتمي إلى مقولات, وإلى أنماط, وأقسام من العلامات مختلفة بحسب النظر إليها؛ إما في حد ذاتها كعلامة أولى, أو ينظر إليها كعلامة ثانية بالنسبة لموضوعها, أو كعلامة ثالثة بالنسبة لمؤولتها أو تفسيرها, وعليه فالعلامة ترتكز عنده على ثلاث وحدات أساسية: هي الركيزة والموضوع والمؤولة.

والعلامة عند "بيرس" هي: تمثيل لشيء ما، يقوم بتوصيل بعض جوانبه أو ما يتعلق به وليس كله، إلى شخص ما، بصفة ما وبطريقة ما، وهذا يعني أنه من شروط أدائها لوظيفتها أن لا يتطابق الموضوع مع المؤول حتى لا يصبح ذلك الشيء المؤول هو العلامة في حد ذاتها، بل أن تنوب عنه في جانب من جوانبه أو صفة من صفاته؛ كأن يكون بينهما تماثل أو تشابه في جهة ما, وعليه فالعلامة تتكون من ثلاثة أشياء مترابطة متصلة ببعضها وهي: العلامة، والشيء الذي تمثله, والمؤول Interprétant الذي يكون لها, أو ما تعبر عنه, والذي يترجمه الكثيرون إلى المفسرة.

فالعلامة شيء يحل بدلا عن شيء, وبدخول العلامة في هذا الإجراء تدخل مجال السيرورة التواصلية.

ومن خواص العلامة أنها تمثل شيئا يسمى ممثلا Représentant, وهو ما يتم "تمثيله سواء كان الشيء الممثل واقعيا أو خياليا أو قابلا للتخيل أو لا يمكن تخيله" أما ما تحيل عليه العلامة وما تحدده، فيسمى موضوعها Object؛ فهو المعرفة

المتصلة بالعلامة, ومن خلالهما فهي تحيل إلى مؤول, ويكون التمثيل هو وظيفتها الأولى, ولا يستطيع أن يقوم بوظيفته إلا بواسطة رابط ما؛ يكون بمثابة العلاقة الجامعة بين العلامة وما تشير إليه؛ كأن تكون سببية أو اعتباطية, أو عرفية, ولا يمكن فهمها إلا بالاستناد على ركيزة أو أرضية Graound, والتي هي ركن للمؤول Interprétant, على النحو التالي في هذا المثلث للعلامة:

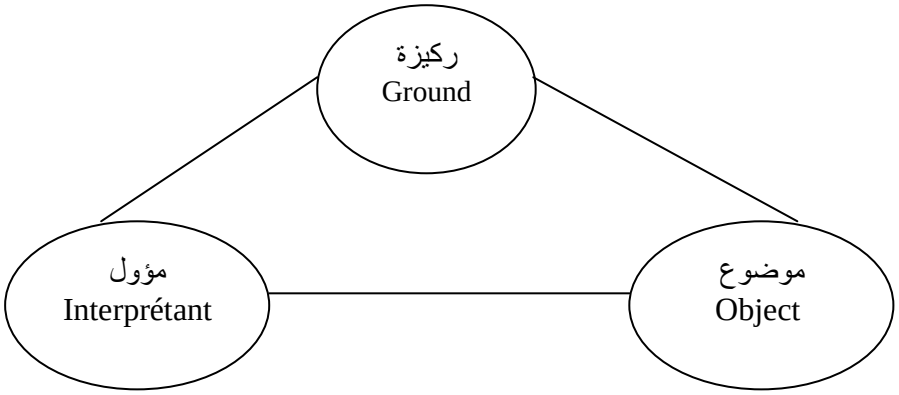

وبتعدد التفاسير المركونة إلى الركائز تتعدد سيرورة العلامة, وهذا ما يؤدي إلى "ما يسمى بالسيميوزيس Sémiosis؛ الذي يتم فيه الانطلاق من العلامة الأصلية بعد ربطها بعلاقة مع المرجع، ثمة علامة جديدة تتطور: إنه المؤول".

والممثل هو العلامة بحد ذاتها, "ولأنه أول؛ هو أساس العلامة بصفتها علامة وبدون علاقة مع موضوعها... والفكرة هي الصيغة الأساسية بل الوحيدة للتمثيل"؛

فهو من يقوم بتوصيل العلامة في مرحلة أولى.

وباعتبار التمثيل يكون الممثل ثلاثة أنواع: فهو مجرد ظاهرة دون ارتباط بأي شيء, وعليه يكون علامة كيفية أو نوعية Quali-signe؛ كأن يكون متعلقا بالصفات الحسية, وقد يكون متصلا "بشيء فردي أو حدث موجود فعلا يشتغل كعلامة", وهنا يكون علامة فردية Sin-signe؛ لأنه يتعلق بشيء خاص, والنوع الأخير للممثل يكون خلافا للنوعين السابقين وذلك عندما يتم تمثيله من خلال ما تم التعارف عليه؛ لذلك يكون علامة قانونية Ligie-singe, تنبني على القواعد المتحكمة في الربط بين الأشياء.